الأوطـــوروت

مصطفـى المسنـاوي

كيف عرفت بوجود الاوطوروت لاول مرة :

في اللحظة التي تمددت فيها ـ بطولي ـ تماما على البساط وقلت اني أسعد شخص فوق هذا الكوكب النائه : شخص يملك شيئا يستطيع أن يدبر في بابه مفتاحا وينمدد على أرضه دون انثناء ، في هذه اللحظة بالذات انما ارتفع الجدار الغربي للبيت الى السماء وسط دوي وهالة كثيفة من الغبار . وفي اللحظة نفسها انما رأيت الشمس الشاحبة والرافعة الصفراء و ، أخيرا ، المواطن ذا الرداء الازرق .

قال لي المواطن الازرق : أنت محظوظ . لحست الغبار من شفتي فقال : أنت محظوظ لانه لا زال أمامك متسع من الوقت تجمع فيه حاجياتك وتذهب بعيدا قبل أن تسقط بقايا البيت عليك وتمر على جسدك الرافعات وآلات الحفر الاخرى . فنظرت الى يد الرافعة والجدار وفكرت في البيت الاول الذي التهمته النار والثاني الذي غاب تحت المطر وقلت : اذهب بعيدا ، الى أين ؟ فلم يسكت وقال لي : هذا أمر يخصك وأنا شخص لا يدس أنفه في شؤون الآخرين. ورأيت يد الرافعة ترمي الجدار بعيدا وتستدير نحو البيت ثانية وقلت له : أستطيع جمع حاجياتي فأجاب : كلا . لقد فات الوقت . اذهب قبل أن يفوت وقتك أنت أيضا . وقلت لنفسي : ألا زال وقتك قائما ؟ ووددت أن أنظر الى وجهي في مرآة وأقهقه حتى يموت قدر كاف من الخلايا ويولد قدر كاف آخر . الا أن أحجار السقف بدأت تسقط فابتعدت عن بيتي السابق وسألت المواطن الازرق : هل أستطيع أن اعرف من أنت ؟ فقال وهو وهو ينقل يديه بين اللوالب والازرار : طبعا . نحن الاوطوروت . والآن اذهب ولا تضع وقتي .

ماذا جرى عندما سألت المواطن الازرق عن اتجاه الاوطوروت :

وابتعدت قليلا فرأيت بيتي السابق يتحول الى أطلال وراودني كثير من الاسف لاجل السواح الذين سيأتون في القرون القادمة فلا يجدون أثرا يزورونه مثلما نزور نحن الآن بيوت الاقدمين . ونظرت الى ما يحيط بي فرأيت عددا من

الرافعات وهي ترفع الجدران بأذرعتها وتدور حول نفسها مطلقة الغبار والدوي والدخان . وخطرت على بالي فكرة نهائية فعدت الى المواطن الازرق وقلت له : هل تستطيع أن تخبرني باتجاه الاوطوروت ؟ . فأوقف عمله تماما وثبت عينيه على عيني وقال : ماذا تقول ؟ قلت : لقد تعلمت كيف أبني بيتي بعيدا عن خطر النار ثم تعلمت كيف أبنيه بعيدا عن خطر الفيضان والآن أريد أن أعرف كيف أبنيه بعيدا عن الاوطوروت . فقال لي : أنتم تسألون نفس السؤال وكأنكم ركبتم عليه . وتأملني مليا وهو ساكن ، ثم أردف : دعني أقول لك ، أنت مواطن طيب فاسمع مني هذا السر ولا تقله لاحد . قلت : هممم ؟ فقال : تستطيع ، وأنت مطمئن البال ، أن تعرف بأن الاوطوروت ليس لها اتجاه محدد. حقا انها تبدأ من جهة ما . لكن لا أحد يستطيع بعد ذلك أن يحدد الى أين تسير ولا أين تقف . وانحنيت على الرافعة سائلا بهمس متواطيء : كيف ؟ فصمت لحظة وقال : أنا لا أفهم أغلب الاشياء ولذلك فأنا مرتاح . وعلى ما يظهر لي فان من الافضل لك أنت أيضا ألا تفهم . وابتسم بسمة مقتصدة فابتسمت بسمة واسعة وغمزته بعيني قائلا : فهمت . فاستأنف عمله وقال : والآن ، هيا ، دعني أعمل . وقلت له وداعا ولم يقل شيئا فابتعدت عنه . والحق أني لم أفهم شيئا البتة . الا أن الشيء الوحيد الذي أحسست به هو أن ما من شيء خاف وأن المرء يوجد دائما على أعتاب المعرفة .

كيف صرت ضعيف السمع والبصر :

ثم أخذت وجهتي نحو البيوت التي لم تصلها الاوطوروت بعد . ومشيت مسافة طويلة حتى أحسست بالتعب فنظرت الى الخلف وشاهدت أن الرافعات الصفراء لم تبتعد عني قط ورأيت أذرعها تنقض على البيوت فترفع جدرانها وتقذف بها جانبا . وتهيأ لي ، بغتة ، أنني أسمع صوت استغاثة مختنقة فأرهفت السمع لكني لم أميز سوى دوي الآلات وهي تعمل . فقلت : أنا على أعتاب الشيخوخة وحواس المرء تبدأ في الضعف عند هذه الاعتاب ، فلعلني لم اسمع شيئا على وجه التحديد . واستأنفت سيري فارتفع الصراخ وكأنه يصدر مني هذه المرة فالتفتت ثانية وبدا لي مواطنان ـ كأن أحدهما رجل وكان الثاني امرأة ـ محاصرين بأربع رافعات أمام حائط احدى البيوت التي لم يصلها دورها بعد ورافعة خامسة تمد يدها فتعصر جسميهما مع الحائط وتمزج الدم بالعظام واللحم والحشرجة . وأدرت رأسي نحو الطريق الممتدة أمامي وسرت وأكدت لنفسي : أنا شيخ الآن ، وعيناي الكليلتان لا تقويان على رؤية أبعد من موقع خطوي . ثم ان الخلق كثير ، والمواطنون لا يتقنون شيئا قدر اتقانهم للتناسل .

كيف فتحت فمي فانغلق من تلقاء ذاته :

ومررت في طريقي بعدد من البيوت الاخرى وقد جلس نساؤها وأطفالها أمام الابواب في صمت مستسلمين للشمس وللذباب وهو يمتص من أجسادهم التعب والميكروبات ويستريح ، حين يتعب ، على كروش الاطفال المنتفخة وعلى رؤوسهم التي امتلأت بأشياء الدنيا دون أن يبلي أصحابها سراويلهم على مقاعد الدرس بعد . وقالت امرأة : لو أن الموت ياتي فينتهي كل شيء مرة واحدة والى الابد . وكان الآباء لا يقتلون أبناءهم الا لانهم يعتقدون بأنهم سيصبحون أطباء ومهندسين ، وذلك رغم أن من يعيش من الابناء لا يقوم بغير افتعال المعارك أمام مكاتب التشغيل . وتذكرت الاوطوروت القادم ففتحت فمي لاحذرهم قبل فوات الزمان . الا انني أحسست به ينغلق من تلقاء ذاته ، فقلت ان اللسان لا عظم به وان الوظيفة التي خلق لها هي تحريك الاكل في الفم اثناء المضغ . وتذكرت عددا من الحكماء والفلاسفة وأكملت طريقي باتجاه المنعطف .

كيف اصطدمت بالمواطن الرمادي وكيف عرفت أنه منهم :

وفي المنعطف تماما وجدتني وجها لوجه مع مواطن يرتدي بذلة رمادية . حدت الى اليمين مخليا له الطريق فحاد الى اليمين. حدت الى الشمال فحاد الى الشمال. عدت فحدت الى اليمين فعاد وحاد الى اليمين. وعدت الى اليسار فعاد الى اليسار. وتجمع الغضب في جيوب عينيه فوقف وقال لي: معك أوراقك؟ قلت: نعم، وأنت ؟ فانتفخت جيوبه الانفية وصرخ بي : أنا من يسأل لا أنت . فعرفت حينها أنه منهم وقلت له : انني آسف وأنا أعتذر كل الاعتذار ولو كنت أعرف أنك ستأتي من هنا لذهبت من هناك وتركتك تمشي حسب رغبتك ان شئت شمالا وان شئت يمينا أو جنوبا . فارتخت أذناه وقال : والآن ، ناولني بطاقتك

كيف قلت للمواطن الرمادي بأني معلق بين السماء والارض فأخبرني بوجود دساكن لمنكوبي الاوطوروت الناجين من الموت :

وناولته البطاقة التي تحمل صورتي ورقمي وعنواني . فتأكد من رقمي وسألني : أين تسكن ؟ وقلت : كنت أسكن بالعنوان المكتوب على ظهر البطاقة، الا انني الآن لا أسكن بأي مكان ، بسبب أن الاوطوروت قد مرت على بيتي منذ لحظات وبذلك فأنا أشبه الشخص المعلق بين السماء والارض وقال لي : هل سبق لك أن علقت بين السماء والارض ؟ قلت : كلا . وانما أسمع الناس يقولون ذلك وأتخيله فيبدو لي أمرا غير مريح . فقال : حسنا . أنت محظوظ

لانك وجدتني أمامك . سوف أبعث بك الى المساكن التي خصصناها لمنكوبي الاوطوروت الناجين من الموت . وتظاهرت بالفرح وسألته : هل ثمة منازل خاصة بنا فعلا ؟ نعم : نعم . منازل بكل ما يلزمها ، قلت وأنا أفكر فيما اذا كان علي أن أستمر في التظاهر بالفرح : حقا ؟ فقال لي : بماذا تفسر ندرة الدقيق والسكر والشاي هذه الايام ؟ قلت : أنا لا أفسر شيئا . أنا مخلوق من مخلوقاته أقصى سعادته أن ياكل القوت وينتظر الموت . وقال : سأجيبك أنا : أتعلم أن كل انتاج البلاد أصبح يكفي بالكاد أولئك المنكوبين ؟ قلت لا أعلم ذلك . وأردفت : وهل هم كثر الى هذا الحد ؟ فلم ينظر الى جهتي وقال : سوف ترى ذلك بنفسك . والآن سر مع هذا الشارع الى نهايته وادخل مع آخر باب تجده على يمينك وأسأل عن المواطن المكلف بقضايا المنكوبين . وشكرته بحرارة فسلمني البطاقة وقال : الآن هيا . وتجنب المنعطفات في المرة القادمة .

كيف أخذني المواطن الاصفر الى السكن :

وسرت مع الشارع فعلا الى نهايته . دون أن أصادف في طريقي انسا ولا جانا ولا حتى قططا متصارعة . وقلت لنفسي : لقد وصلت الى نهاية العالم . وكان الشارع محصورا بسور ضخم ولا منفذ له . فنظرت الى اليمين ورايت حيطانا رمادية ونوافذ مقفلة وبابا واسعا مشرع الدفتين وكان الاخير في الصف فقلت : هو ذا ودلفت منه فوجدت ردهة ملأى بمواطنين يرتدون أزياء صفراء وخضراء واقترب مني مواطن برداء أخضر وقال : ماذا تريد ؟ قلت : لا شيء . أنا فقط أسأل عن المواطن المكلف بقضايا المنكوبين . فقال : أنا هو بلحمه ودمه . ماذا تريد مني ؟ قلت : أنا . البيت . الاوطوروت . قال : نعم ، فهمت ، تعال معي أيها المواطن المنكوب . وأخذني نحو باب ينفتح على باطن الارض وقال : اتبعني . ونزلت وراءه على درج ضيق يلتف حول نفسه الى أن وصلنا الى كهف يضيئه مصباح كهربائي ذابل يكشف عن مكتب جلس خلفه مواطن عار لا يرتدي أي زي وعن أبواب سوداء عدة . وقال المواطن الاخضر : مساء الخير . فقال المواطن العاري : صباح الخير . ونظر الي فقلت : ظهر الخير . وقال المواطن الاخضر : هو ذا منكوب جديد يبحث عن سكن . فقال الآخر : مرحبا . أتمنى أن تعجبك مساكننا . وابتسمت وأومأت برأسي . فسألني : هل معك ساعة . قلت كلا . وقال : هل معك نقود . قلت كلا . فقال : والآن ، اخلع سيور حذائك . واقترب مني المواطن الاصفر ومرر يديه على جيوبي وعلى باقي مناطق جسمي فلم يجد شيئا وقال : اخلع سيور حذائك . وانحنيت لأخلعها فوجدت رجلي حافيتين وتذكرت فقلت له : لقد نسيت الحذاء في البيت، لم يكن الوقت كافيا ، ونظرا الى رجلي ووقف المواطن العاري وقال : حسنا ،

تعال الى هذه الجهة . وتناول من فوق المكتب سلسلة من المفاتيح وفتح باحداها أحد الابواب في فرقعة شديدة وقال لي : ادخل . وتقدمت فلفحت وجهي الحرارة ورائحة البول العطن ودخان السجائر الملفوفة ، فترددت وقلت : لعلكم على خطأ . فأنا أسأل عن مساكن منكوبي الاوطوروت . وقال : وهذه ، ألم تعجبك . ودفعني من ظهري : تقدم أيها المنكوب : وأغلق الباب .

كيف عرفت بوجود الاوطوروت لاول مرة :

وبدأت عيناي تتعودان على المكان فرأيت عددا من المواطنين يحيطون بي ويحملقون في وجهي بعيونهم الجاحظة . ورأيت مصباحا كهربائيا ذاويا . وقال لي مواطن : كم سرقت ؟ وقال صوت آخر : أنا لا اعرفه ، لكنه قاتل دون شك . وهتف ثالثا : كلا ، أنا اعرفه ، لقد كان يهرب الكيف . وتعالت أصواتهم . فقلت لهم : أنتم على خطأ . فأنا من منكوبي الاوطوروت . ونظروا الى وجهي في صمت . وهتف مواطن ذو لحية بيضاء : الاوطوروت ! ما هي الاوطوروت ؟ فضحك مواطن آخر وقال : ألا تعلم ايها المغفل . ثم اكمل وهو لا يزال يضحك : معناها ... وحرك وسط جسمه وذراعية حركة ذات معنى . فانفجر كل الحاضرين بالضحك سوى المواطن ذي اللحية البيضاء الذي بدا انه لم يفهم وسألني: شمهروش ؟! وازداد الضحك قوة وأخذ المواطنون يتساقطون على ظهورهم . ولم اعرف بماذا أجبه فسأل ثانيه : يوم الحساب ! ؟ واخذوا يركلون الهواء بارجلهم ويسعلون فيبصقون الدم . وبغتة فرقع الباب وبرز المواطن العريان وقال : ماذا يحصل ؟ فساد الصمت بلحظة ووقف مواطن له شكل هيكل عظمي وقال : هذا الرجل قال لنا : أنتم كلكم هنا بسبب الاوطوروت . وفتحت فمي فعاد وانغلق ووقف مواطن آخر وقال : لقد ذكر لنا أن الاوطوروت حيلة لانتزاع أراضي الناس . وسألني المواطن العريان : أحقا ، وأنت لم تدفيء مكانك بعد ؟ قلت : كلا ، لقد كانوا يقولون لي : ما هي الاوطوروت . فقال : ما هي الاوطوروت ؟ ألا تعرفون ما هي الاوطوروت ؟ فوقفوا جميعا وقالوا بصوت واحد : كلا . نحن نعرفها . فابتسم وأشار الى جهتي ، اذن قولوا له ما هي . فوضعوا جميعا أيديهم خلف ظهورهم باستثناء الرجل ذي اللحية البيضاء وهتفوا : الاوطوروت هي أقرب طريق الى القمر . وقال لهم : حسن جدا . أعيدوا . ونظرت الى المواطن الملتحي فلحظته مكوما في ركن من أركان المكان ينظر بصمت الي والى المواطن العريان ثم الى باقي المواطنين . وقال المواطن العريان موجها الكلام الي : هل عرفت ما هي الاوطوروت ؟ قلت : نعم ، هي أقرب طريق الى المريخ ، فلم يقل لي أحد . وابتسم وقال : لا تضحكوا كثيرا فميعاد الاكل يقترب . وخرج ثم أقفل الباب .

وبدأ المواطنون يمتصون أصابعهم ، فذهبت الى المواطن الملتحي

وجلست بجواره . فنظر الى عيني وقال : ما هي الاوطوروت ؟ وكانت نظرته حادة ملهوفة فلم أجد بدا من مصارحته فقلت له متحاشيا أن يسمعنا الآخرون ان الاوطوروت طريق طويلة معبدة تمر بها السيارات والشاحنات حاملة السلع التي ينبغي حملها والناس الذين ينبغي حملهم وقلت له ان الاوطوروت مرت فوق ببتي منذ لحظة وأنني أتيت هنا لاجل السكن الا أنني أعتقد أنهم سوف يصنعون من جسمي قارا يعبدون به الطريق . وبذلك نعود الى القار الذي أتينا منه في البداية . وأمسكني المواطن ذو اللحية البيضاء من ذراعي وقال : كلا . ليست هذه هي الاوطوروت . وقلت له : اذن ما هي ؟ . فقال : اسكت ، ومد يده تحت جلده وأخرج قطعة من صفحة جريدة ووضعها بين يدي وقال : انظر . ونظرت فرأيت صورتين لعائلة سعيدة . كتب على أولاها : هذه عائلة . وعلى ثانيتها : هذه مؤسسة . ولم ألحظ فرقا بين الصورتين ، فقلت ، الاوطوروت . وتأملت الاب يجلس على المقعد برزانة والام تقف مختالة وقورة والابناء يبتسمون ولا يعرفون شيئا غير الابتسام . فعاودتني الرعشة القديمة ونظرت الى المواطن فوجدت عينيه تلتمعان وهما تبحثان في وجهي عن شيء ما . ولم أجبه وطويت الورقة . وتذكرت الوالد والوالدة والزمن البعيد . وذكرت ان الارض كرة وأن قبائل الاوروا لا تتكلم العربية . فاشتدت الرعشة . وناولت الورقة الى المواطن . ونظرت الى عينيه . ثم نظرت الى المواطنين الآخرين وهم بمصون أصابعهم . ورفعت عيني الى السقف فرأيت الاوطوروت قادمة . وأردت أن أهتف بالمواطن الابيض : ها هي ذي ، أنظر . وكانت الاوطوروت وحشا خرافيا بسبعين رأسا وبآلاف الاذرع . الا أن لساني ثقل ، وأعضائي انغرزت في الارض . وقلت : الآن سأصرخ صرخة النهاية . وبدأت الرعشة تشتد فاهتزت الحيطان واهتز الاشخاص . ورأيت الخيول وهي تركض امام عيني فارة من السهام وهي تطارد أعناقها . ورأيت النجم القطبي وأربعة نجوم أخرى . ورأيت السفن والثلج والاتربة . ورأيت أشياء كثيرة ، غير ان الرعشة تشتد تشتد تشتد . غير أن الرعشة تشتد ...

مصطفى المسناوي
أواخر سبتمبر 1977